٤ ـ صعاليك الصحافة . . .

تتمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وجاء أبو عثمان وفي بُروز عينيه ما يجعلهما في وجهه شيئا كعلامتي تعجُّب ألقتهما الطبيعة في هذا الوجه . وقد كانوا يلقبونه (الحَدَقي) فوق تلقيبه بالجاحظ ، كأن لقباً واحدا لا يبيّن عن قبح هذا النتوء في عينيه الا بمرادف ومساعد من اللغة . . . . وما ذكرت اللقبين إلا حين رأيت عينيه هذه المرة .

وانحطّ في مجلسه كأن بعضَه يُرمى بعضه من سخط وغيظ ، أو كأن من جسمه مالا يريد أن يكون من هذا الخلق المشوه ، ثم نصب وجهَه يتأمل ، فبدت عيناه في خروجهما كأنما تهمّان بالفرار من هذا الوجه الذي تحيا الكآبة فيه كما يحيا الهمّ في القلب ؛ ثم سكت عن الكلام لأن أفكاره كانت تكلمه .

فقطعت عليه الصمت وقلت : يا أبا عثمان رجعت من عند رئيس التحرير زائدا شيئاً أو ناقصا شيئا فما هو يرحمك الله ؟

قال : رجعت زائداً أني ناقص ، وههنا شيء لا أقوله ، ولو أن في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين . لوقفوا على عملك وأمثال عملك من كتاب الصحف يتعجبون لهذا النوع الجديد من الشهداء

وقال ابن يحيى النديم : دعاني المتوكل ذات يوم وهو مخمور فقال : أنشدني قول عمارة في أهل بغداد . فأنشدته :

ومن يشترى مني ملوكاً مُخَرَّم ... أبِعْ حَسَناً وابنَي هِشامٍ بدِرْهم

وأعطي رجاءً بعد ذاك زيادة ... وأمنحُ دينارا بغير تندُّم

قال أبو عثمان :

فان طلبوا مني الزيادة زدتُهم ... أبا دُلَفٍ والمستطيل بن أكثم

ويلي على هذا الشاعر . اثنان بدرهم ، واثنان زيادة فوقهما العظم الدرهم ، واثنان زيادة على الزيادة لجلالة الدرهم ؛ كأنه رئيس تحرير جريدة يرى الدنيا قد ملئت كتّابا . ولكن ههنا شيئا لا أقوله

وزعموا أن كسرى أبرويز كان في منزل امرأته شيرين ، فأتاه صياد بسمكة عظيمة فأعجب بها وأمر له بأربعة آلاف درهم فقالت له شيرين : أمرت الصياد بأربعة آلاف درهم ، فان أمرت بها لرجل من الوجوه ، قال : إنما أمر لي بمثل ما أمر للصياد . فقال كسرى : كيف أصنع وقد أمرت له ؟

قالت : إذا أتاك فقل له : اخبرني عن السمكة ، أذكر هي أم أنثى ؟ فان قال أنثى ، فقل له : لا تقع عيني عليك حتى تأتيني بقرينها ، وان قال غير ذلك فقل له مثل ذلك .

فلما غدا الصياد على الملك قال له : اخبرني عن السمكة ، أذكر هي أم أنثى ؟ قال : بل أنثى . قال الملك : فأتني بقرينها . فقال الصياد عمر الله الملك ، إنها كانت بكراً لم تتزوج بعد . . .

قلت : يا أبا عثمان فهل وقعت في مثل هذه المعضلة مع رئيس التحرير ؟

قال : لم ينفع عملك أن سمكته كانت بكراً . فانما يريدون إخراجه من الجريدة وما بلاغة أبي عثمان الجاحظ بجانب بلاغة التلغراف وبلاغة الخبر وبلاغة الأرقام وبلاغة الأصفر وبلاغة الأبيض . . . ولكن ههنا شيئا لا أريد أن أقوله .

وسمكتي هذه كانت مقالة جودتها وأحكمتها وبلغت بألفاظها ومعانيها أعلى منازل الشرف وأسنى رتب البيان وجعلتها في البلاغة طبقة وحدها . وقبل أن يقول الاوربيون (صاحبة الجلالة الصحافة) قال المأمون : « الكتاب ملوك على الناس » . فأراد عمك أبو عثمان أن يجعل نفسه ملكا بتلك المقالة فاذا هو بها من (صعاليك الصحافة) .

لقد كانت كالعروس في زينتها ليلة الجلوة على محبها ، ما هي إلا الشمس الضاحية ، وما هي إلا أشواق ولذات ، وما هي إلا اكتشاف أسرار الحب ، وما هي إلا هي . فاذا العروس عند رئيس التحرير هي المطلقة ، واذا المعجب هو المضحك ، ويقول الرجل : أما نظرياً فنعم ، وأما عمليا فلا ، وهذا عصر خفيف يريد الخفيف ، وزمن عامي يريد العامي ، وجمهور سهل يريد السهل ، والفصاحة هي إعراب الكلام لا سياسته بقوى البيان والفكر واللغة ، فهي اليوم قد خرجت من فنونها واستقرت في علم النحو

(١) كتب الدكتور زكي مبارك مقالا في جريدة المصري الغراء زعم فيه أننا هنا « إن الصحافة لا تنجح إلا في أيدي الصعاليك » ولا ندري كيف أحس هذا المعنى . ثم تهددنا !!! فقال : « ما رأيك إذا وقف لك أحد الصحفيين (ولعله يعني نفسه) في معركة قاسية !!! ويرماك بحب التكلف والاعتمال في علم الانشاء والتأليف » ؟ « ما رأيك إذا حملك رجل منهم (ولعله يعني نفسه) على طلقه والقى بك في هاوية التاريخ لتعيش مع سعصعة بن صوحان » ؟ — المع خطباء العرب وانطقهم —

وجوابنا لصاحبنا هذا : أن وزارة الداخلية اطلعت على مقاله فأمرت جميع المحال التي تبيع لعب الأطفال ـ ألا يبيعوا « معركة قاسية » ولا « هاوية تاريخ » . .

وحسبك من الفرق بينك وبين القارىء العامى : أنك أنت لا تلحن وهو يلحن

قال أبو عثمان : وهذه أكرمك الله منزلة يقل فيها الخاصى ويكثر العامى فيوشك ألا يكون بعدها إلا غلبة العامية ، ويرجع الكلام الصحافي كله سوقياً بلدياً (حنشصياً) ، وينقلب النحو نفسه وما هو إلا التكلف والتوعر والتقعر كما يرون الآن فى الفصاحة ، والقليل من الواجبات ينتهى إلى الأقل ، والأقل ينتهى إلى العدم ، والانحدار سريع يبدأ بالخطوة الواحدة ثم لا تملك بعدها الخطى الكثيرة

لا جرم فسد الذوق وفسد الأدب وفسدت أشياء كثيرة كانت كلها صالحة ، وجاءت فنون من الكتابة ما هى إلا طبائع كتّابها تعمل فيمن يقرؤها عمل الطباع الحية فيمن يخالطها . ولو كان فى قانون الدولة تهمة إفساد الأدب أو إفساد اللغة ، لقبض على كثيرين لا يكتبون إلا صناعة لهو ومسلاة فراغ وفساداً وإفساداً . والمصيبة فى هؤلاء ما يزعمون لك من أنهم يستنشطون القراء ويلهونهم . ونحن إنما نعمل فى هذه النهضة لمعالجة اللهو الذى جعل نصف وجودنا السياسى عدما ؛ ثم لملء الفراغ الذى جعل نصف حياتنا الاجتماعية بطالة . وهذا أيضاً مما جعل عمك أبا عثمان فى هذه الصحافة من (صعاليك الصحافة) وتركه فى المقابله بينه وبين بعض الكتاب كأنه فى أمس وكأنهم فى غد .

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير . . .

٥٥٥

فما شككت أنهم سيطردونه فان الله لم يرزقه لساناً مطبعياً ثرثاراً يكون كالمتصل من دماغه بصندوق حروف . . . ولم يجعله كهؤلاء السياسيين الذين يتم بهم النفاق ويتلون ، ولا كهؤلاء الأدباء الذى يتم بهم التضليل ويتشكل .

ورجع شيخنا كالمخنوق أرخى عنه وهو يقول : ويلى على الرجل . ويلى من الكلام الظريف الذى يقال فى الوجه ليدفع فى القفا . . . كان ينبغى ألا يملك هذه الصحافة اليومية إلا مجالس الأمة ، فذلك هو إصلاح الأمة والصحافة والكتّاب جميعاً . أما فى هذه الصحف فالكاتب يخبز عيشه على نار تأكل منه قدر ما يأكل من عيشه ، ولو أن عمك فى خفض ورفاهية وسعة ، لكان فى استغنائه عنهم حاجتُهم إليه ، ولكن السيف الذى لا يجد عملا للبطل ، تفضّله الإبرة التى تعمل للخياط . وماذا يملك عمك أبو عثمان ؟ يملك مالا ينزل عنه بدول الملوك ، ولا بالدنيا كلها ، ولا بالشمس والقمر ، إذ يملك عقله وبيانه . على أنه مستأجر هنا بعقله وبيانه يعقل ما شاؤا ويكتب ما شاؤا .

لك الله أن أصدقك القولَ فى هذه الحرفة اليومية . إن الكاتب حين يخرج من صحيفة إلى صحيفة ، تخرج كتابته من دين إلى دين . . .

ورأيت شيخنا كأنما وضع له رئيس التحرير مثلَ البارود فى دماغه ثم أشعله . فأردت أن أمازحه وأسرى عنه ، فقلت : اسمع يا أبا عثمان . جاءتنى بالأمس قضية يرفعها صاحبها إلى المحكمة ، وقد كتب فى عرض دعواه : إن جار بيته غصبَه قطعة من أرض فنائه الذى تركه حول البيت ، وبنى فى هذه الرقعة دارا ، وفتح لهذه الدار نافذات . فهو يريد من القاضى أن يحكم برد الأرض المغصوبة ، وهدم هذه الدار المبنية فوقها ، و . . و . . وسد نافذاتها المفتوحة . . . !

فضحك الجاحظ حتى أمسك بطنه بيده وقال : هذا أديب عظيم كبعض الذين يكتبون الأدب فى الصحافة ! كثرت ألفاظه ونقص عقله . « وسئل بعض الحكماء : متى يكون الأدب شراً من عدمه ؟ قال : إذا كثر الأدب ونقصت القريحة . وقد قال بعض الأولين : من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه ؛ كان حتفه فى أغلب خصال الخير عليه ؛ وهذا كله قريب بعضه من بعض (١)

والأدب وحده هو المتروك فى هذه الصحافة لمن يتولاه كيف يتولاه إذ كان أرخص ما فيها ، وإنما هو أدب لأن الأمم الحية لا بد أن يكون لها أدب ، ثم هو من بعد هذا الاسم العظيم ملء فراغ لا بد أن يملأ . وصفحة الأدب وحدها هى التى تظهر فى الجريدة اليومية كبقعة الصدأ على الحديد تأكل منه ولا تعطيه شيئاً .

ثم يأبى من تترك له هذه الصفحة إلا أن يجعل نفسه (رئيس تحرير) على الأدباء ، فما يدع صفة من صفات النبوغ ولا نعتاً من نعوت العبقرية إلا نحَلَه نفسه ووضعه تحت ثيابه ؛ وما أيسر العظمة وما أسهل منالها إذا كانت لا تكلفك إلا الجراءة والدعوى والزعم ، وتلفيق الكلام من أعراض الكتب وحواشى الأخبار وقد يكون الرجل فى كتابته كالعامة ، فاذا عيته بالركاكة

(١) هذه الجملة من كلام الجاحظ

والسخف والابتذال وفراغ مايكتب ؛ قال : هذا مايلائم القراء. وقد يكون من أكذب الناسَ فيما يدّعى لنفسه وما يهوّل به لتقوية شأنه وإصغار من عداه ، فاذا كذّبه من يعرفه قال : هذا ما يلائمنى . وهو واثق أنه فى نوع من القراء ليس عليه إلا أن يملأهم بهذه الدعاوى كما تُملأ الساعة ، فاذا هم جميعاً يقولون : تك تك . . تك تك . . . . .

فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ؛ جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب ، كلّه سواء وكله بياناً[1] ، وكان المكى طيبَ الحجج ، ظريفَ الحيل ، عجيب العلل . وكان يدّعى كل شىء على غاية الإحكام ولم يحكم شيئاً قط من الجليل ولا من الدقيق . وإذ قد جرى ذكره فسأحدثك ببعض أحاديثه . قلت له مرة : أعلمت أن الشارى حدثنى أن المخلوع (أى الأمين) بعث إلى المأمون بجراب فيه سمسم ، كأنه مخبره أن عنده من الجند بعدد ذلك ، وأن المأمون بعث له بديك أعور ، يريد أن طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كلهم كما يلقط الديك الحب ؟

قال : فان هذا الحديث أنا ولدته ، ولكن انظر كيف سار فى الآفاق . . . [2]

ثم قال أبو عثمان : وقد زعم أحد أدبائكم أنه اكتشف فى تاريخ الأدب اكتشافاً أهمله المتقدمون وغفل عنه المتأخرون ، فنظر عملك فى هذا الذى ادعاه ، فاذا الرجل على التحقيق ، كالذى يزعم أنه اكتشف أمريكا فى كتاب من كتب الجغرافيا . . . .

وما يزال البلهاء يصدقون الكلام المنشور فى الصحف لا بأنه صدق ولكن بأنه « مكتوب فى الجريدة » . . . . فلا عجب أن يظن كاتب صفحة الأدب ـ متى كان مغروراً ـ أنه إذا تهدد إنساناً فما هدده بصفحته بل بحكومته . . . .

نعم أيها الرجل إنها حكومة ودولة ؛ ولكن ويحك : إن ثلاث ذبابات ليست ثلاث قطع من أسطول انجلترا . . . . . !

* * *

وضحك أبو عثمان وضحكت فاستيقظت

(خطا) مصطفى صادق الرافعى

(١) و (٢) هذا من كلام الجاحظ

من التاريخ

المهديون المنتظرون

لأستاذ كبير

قال الأستاذ محمد عبد الله عنان فى مبحثه البارع (ضوء جديد على مأساة شهيرة) فى الجزء (١٨٨) من هذه المجلة : إن رجعة[1] الحاكم قد بنيت على المقالة المهدوية ، وذكر ثلاثة من الجماعة المنتظرة . وقد رأيت أن أطرف قراء (الرسالة) أقوالا موجزة فى (المهديين المنتظرين) مما خطه مؤرخو النحل الإسلامية ونقله رجال الأثر . وأنا فى ذلك راوٍ لا ينقد مقالة فرقة ، ولا يجادل جماعة مذهب ، ولا يضيف شيئاً من عنده إلى نقله . وروايتى هى عن هذه الكتب : مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين للأشعرى ، الفرق بين الفرق للبغدادى ، الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، الملل والنحل للشهرستانى ، فرق الشيعة للنوبختى ، سنن أبى داود ، صحيح الترمذى ، المحصل للرازى ، شرح مواقف الايجى للجرجانى ، شرح الدرة المضية للسفارينى .

١ — على بن أبى طالب

قالت السبئية : « إن عليا لم يقتل ، ولم يمت ، ولا يقتل ولا يموت حتى يسوق العرب بعصاه ، ويملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت ظلما وجورا . وهو المهدى المنتظر دون غيره [2] » .

٢ — ابن الحنفية (محمد بن على)

قالت الكربية الكيسانية : « إن محمد بن الحنفية حى لم يمت ، وإنه فى جبل رضوى ، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل ، يأتيه رزقه غدوة وعشية ، وعن يمينه أسد ، وعن يساره نمر ، يحفظانه من أعدائه ؛ وهو المهدى المنتظر [3] » .

٣ — عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب

« زعمت الجناحية (فرقة من الكيسانية) أن عبد الله بن

(١) (الرجعة) عند الدروز اقترب أجلها ، اذ مدة (الغيبة) ألف سنة ، ورجال الدين منهم فى قلق وحيرة لدنو الميعاد . ويقول بعض لبعض : استعدوا قربت (الساعة). وستشهد (القاهرة) — حسبما سطر فى كتب الجماعة — عجائب وغرائب . وتعز فيها أقوام وتذل أقوام . . .

(٢) البغدادى ، النوبختى .

(٣) الأشعرى ، البغدادى ، الشهرستانى .